الثُّنائية اللغوية بالنسبة للغة العربية وأوصافها الحقيقية: الإيجابية منها والسلبية *

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

إن الثنائية اللغوية هو اصطلاح حديث العهد يطلق على ظاهرة لغوية اجتماعية وهي استعمال لغتيْن: اللغة الأصلية ولغة ثانية (ويقابله في الإنكليزية كلمة (Bilingualism). ولهذه الظاهرة ارتباط وثيق بهوية الفئات من الناس الذين يوصفون بذلك وبتاريخ الدولة التي ينتمون إليها وعلاقاتها بغيرها من الدول الاستعمارية. وقد تكاثر في عصرنا الذين يلجأون إلى استعمال لغة أخرى غير لغتهم الأصلية في الكثير من حاجاتهم. وتشاهد هذه الظاهرة في جميع البلدان التي تسمى الآن بالنامية ومنها البلدان العربية وهي قليلة جدا في البلدان الكثيرة الإنتاج العلمي باستثناء الأقليات التي تعيش فيها كالناطقين بالاسبانية في الولايات المتحدة والأفارقة والأسيويين القاطنين في أوربا.

ولهذا لا نستطيع أن نتعرض لهذه الظاهرة وخاصة في البلدان العربية بعد وصفها **دون أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التي أدّت الآلاف من المثقفين العرب إلى استعمال الإنكليزية أو الفرنسية بدلا من العربية**

(*) ألقي هذا البحث في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتاريخ مارس 2012.

في مناسبات خاصة بل حتى في الحياة اليومية في بعض المجتمعات أو بعض الجهات في الوطن العربي. وقد يرى بعض الناس أن هذا سببه عجز من اللغة العربية أو قُصور مُذنب من أصحابها وليس الأمر كذلك. هذا وماذا عسانا أن نستفيد من الوصف المجرّد لهذه الظاهرة الخطيرة (ونبدي تأسفنا الشديد) إذا لم نتساءل عن الأسباب وإذا لم نربطها بظواهر أخرى لها علاقة قوية بالأولى وبالسلوك اليومي عامة.

فالذي سنتطرق إليه هو أولا النظر في مفهوم الثنائية وانتشارها وذلك بالنسبة لاستبداد اللغة الأجنبية في بعض الميادين وثانيا النظر في الأسباب التي أدّت إلى هذه الحالة والنظر أخيرًا في تطور هذا الوضع والوسائل والتدابير الكفيلة بالنهوض بلغتنا.

إن ما أصاب اللغة العربية من ضعف في منافستها لبعض اللغات الأجنبية حتى في عقر دارها ليس هو أمرًا غريبا بل لهذا التقهقر والتدهور اللغوي أسباب، كما قلنا، وظروف **وليست** في الحقيقة **مجرّد أزمة** يمكن أن تنفرج بالتدخل الملائم. فقد ترتب على تفوق بعض البلدان الغربية علميا وتكنولوجيا على غيرها **تفوق اللغات التي ينطق بها أصحابها** في الميادين العلمية والثقافية عامة حتى اضطرت الأمم الأخرى و منهم الغربيون من غير الناطقين بالإنكليزية أو الفرنسية أن تتعلم إحدى اللغتين و لاسيما الأولى منها للاطلاع على ما يجدّ من جديد عند أصحابها في الميدان العلمي. ورغب الناس في تعلم اللغـــات الأجنبية المتفوقة واشتدت حاجتهم إلى ذلك وخاصة عند تطور أجهزة الاتصـــال والإعلام

وانتشارها السريع والشامل. وانتشرت حينئذ الثنائية اللغوية وكان لها جانب مفيد وجانب سلبي سيئ.

I- الثنائية اللغوية في البلدان العربية

إن الثنائية اللغوية في الوطن العربي تتفق فيها البلدان العربية في بعض جوانبها وتختلف اختلافا كبيرا بين دولة وأخرى ومن ميدان إلى آخر. وذلك كالإدارة في دواليب الدولة في المشرق والمغرب. وكالقطاع الاقتصادي والتجاري خاصة وكقطاعي الإعلام والإشهار المكتوب والمسموع والمرئي وقطاع التكوين والتعليم.

ونتعجب ممن يذكر الثنائية اللغوية وحدها كظاهرة اجتماعية في العالم الثالث والعربي خاصة ولا يذكر معها ظاهرة أخرى وهو الاكتفاء باستعمال اللغة الأجنبية وحدها في بعض القطاعات. **فغياب اللغة العربية في هذه القطاعات هو أخطر بكثير** وقد تكون الثنائية التي تكون فيها العربية على حدّ سواء مع اللغة الأجنبية في الزمان الذي نعيش فيه شيئا إيجابيا في اكتساب المعارف الجديدة.

أما فئات الشعب المختلفة ففي جميع البلدان العربية لا تستعمل هذه الفئات إلا لغة واحدة في جميع معاملاتهم وحياتهم العامة وهي العربية باستثناء بعض المواطنين الذين ينطقون بلغة زيادة على العربية وهي الأمازيغية والكردية ولغات أخرى مختلفة وهي لغات إسلامية وهي ثنائية حقيقية سبب وجودها غير الثنائية الناتجة عن التفوق الغربي. وتوجد ثنائية

ورثها الناس من الاحتلال الاستعماري السكاني بصفة خاصة في بعض البلدان كالجزائر والمغرب العربي عامة في عدد من القطاعات وذلك مثل ما هو موجود في الإدارة لبعض الوزارات.

فالثنائية التي تنحصر في الحديث العادي أو في تحرير الإدارة للوثائق باللغتين وغير ذلك من أنواع الثنائيات فهي لا تأتي بشئ مفيد ولا تقوم بوظيفة معينة يكون لها نهاية بتحصيل الغرض بل هي ثنائية متطفلة جدّ مضرة لأنها بتطفلها على اللغة الوطنية تسهم في تقلص مكانتها وقد تتغلب عليها. وهذا من أخطر ما تكون عليها اللغة الوطنية.

وقد يسمي بعضهم ثنائية ما يضيفه المواطن المثقف إلى استعماله للعربية استعماله للانكليزية في الجامعة وفي ذلك شئ من التسامح لأن الطالب في الجامعة لا يدرس العلوم الآن إلا باللغة الأجنبية فإن كان يعرف اللغتين –مبدئيا– فإن تعلمه للعلوم ليس فيه أية ثنائية. وهكذا هو الأمر بالنسبة لمن يدرس في المدارس الخاصة الأجنبية فليس هناك ثنائية أبدا بما أن كل الاختصاصات تدرس باللغة الأجنبية فالعبرة تكون باستعمال لغتين في نفس الميدان أو نفس النشاط المهني لإتقان الأفراد للغتين فقط.

ثم إن استعمال اللغتين في نفس الميدان هو شئ موجود في جميع البلدان العربية وقد يكثر في قطاع دون آخر ومن بلد إلى آخر. والذي يجمعها هو أن المثقفين الذين يتقنون اللغة الأجنبية إتقانا هم الذين درسوا في المدارس الخاصة الابتدائية أو الثانوية أو المدارس الأجنبية الموجودة في الوطن العربي دراسة كاملة وتعوّدهم على استعمال اللغة الأجنبية يؤديهم إلى التخاطب

بها من غير حاجة ماسة إلى ذلك وهذه هي أيضا ثنائية وتؤدي في بعض الجهات إلى اختلاط اللغتين في التخاطب العادي. وهذه الأخيرة هي أسوأ الثنائيات. وعلى الرغم من عموم الاستعمال للعربية في المستوى ما قبل الجامعي فلم تزُلْ هذه الثنائية السلبية عند بعض المثقفين بكيفية نهائية. وقد يُشاهد مثل هذا في بعض من درس في المدارس الأجنبية في سائر البلدان العربية. ولا يمكن أن يمتنع تماما من استعمال اللغة الأجنبية من يعيش في وسط مكثف من مزدوجي اللغة.

أما الأسباب التي تدعّم الثنائية السلبية غير المفيدة فليست لها علاقة بالثنائية هي في نفسها والاستمرار فيها. فأهمها هو **غياب اللغة العربية من التعليم العالي** للعلوم ومن البحث العلمي الطلائعي **وغيابها كلغة تعليم في المدارس الخاصة** وبالتالي استبداد اللغة الأجنبية بهذا التعليم وهذا البحث وسيادتها فيها سيادة كاملة فهذا هو التدهور الحقيقي.

لقد قلنا بأن المجتمعات الغربيـــة الأصلية كالأمريكيين الأصليين وكذلك البريطانيون لا يلجأون **في حياتهم اليومية** إلى استعمال لغـــة أخرى غير لغتهم الأصلية إلا نادرًا. ومن الملاحظ أن بعض الفئات من البلدان الغربية الأخرى مثل المهندسين والعلميين عامة قد يضطرون إلى استعمال الإنكليزية في ممارسة حرفتهم. وهذه هي نفس الظروف التي تجعل العرب وغيرهم من البلدان النامية يضطرون إلى استعمال اللغة الإنكليزية أو الفرنسية في الكثير من الظروف مع الكثير من التنوع والاختلاف .

II- أسباب ضعف العربية

إن اللغة العربية في زماننا هذا هي لغة تتميز عن غيرها ببعض المميزات منها أن أغلب أصحابها مروا بفترتين سيئتين جدا: الأولى هي عصر الجمود الفكري الذي غمر العرب لعدة قرون بعدم التجدّد في التفكير وعدم الإبداع تماما في الميدان العلمي وبالبقاء لا على ما قاله المبدعون من العصر الأول لظهور الإسلام بل **على ما قاله المتأخرون**. فرددته الأجيال من العلماء بدون أي تطوير إلى يومنا هذا. أما الفترة الثانية فهي عصر التسلط الاستعماري الشرس الذي حاول الغرب فيه القضاء على الكيان العربي الإسلامي بتجهيل الشعوب وإفقارها ثم تلاه عصر العولمة. **فاللغة هي مرآة للحالة الاجتماعية التي يكون عليها الناطقون بها**. فتوقُّف الإبداع الفكري يتراءى في اللغة كما تتراءى فيها حالتهم الاجتماعية المتصفة بالركون فتصير مترلتها بذلك عند الأمم الأخرى مترلة ضعف شديد. **وهو سبب نفور بعض الناطقين بها أنفسهم** عن استعمالها في ميادين التعامل مع العلوم والتقنيات والثقافة العالمية عامة.

اللغة مثل العُملة قيمتها في قيمة ما تنقله و بقاؤها ببقاء قيامها بهذا فاللغة التي لا تنقل المعلومات الطلائعية ذات **القيمة الموضوعية في سوق التبادل العلمي والتكنولوجي تصير غير مطلوبة عند الجميع**. وهذا ما يجعل أكثر الناطقين بها يلجأون إلى اللغات التي تقوم بهذه المهمة بفضل ما يُنتجه وما يبدعه أصحابها. فيترتب على ذلك تسلط اللغة الأجنبية ذات النفوذ على النشاط الفكري وبالتالي ميل السلطات إلى فرض التعليم للعلوم في الجامعات بالإنكليزية أو الفرنسية.

إن الكثير من المواطنين العرب يدعون إلى تعريب التعليم العالي بكامله بحجة أن كل دولة تحترم نفسها لا تدرس العلوم في مستوى الجامعة إلا بلغتها ولا يمكن أن يكون التعليم ناجعا إلا «بلغة الأم». وهو رأي صادر من مواطنين مخلصين. إلا أن التعليم الذي لا يرافقه الإبداع من **أصحابه أنفسهم** فلا يكون إلا عالة على من يصنعون العلم مهما بلغت سُمعة الحضارة التي صنعها أسلافهم فيما مضي. فالاستقلال النسبي للغات والاستغناء الجزئي عن غيرها لا يتحقق إلا في البلدان التي تنتج العلم وتبدع فيه وتخترع وتكتشف. أما بالنسبة إلى الكثير من الأمم التي لا يصدر منها هذا الإبداع فهي في حاجة أن تترجم ما يُنشر من المعارف الجديدة والنظريات الحديثة في جميع ميادين المعرفة. فأما ما تحتاج إلى ترجمته فيعد بآلاف المقالات العلمية تنشر في كل عام زيادة على المئات من الكتب العلمية القيمة. والتأخر المهول في الترجمة العلمية يؤدي إلى التأخر العلمي والثقافي **وهو الميزة الأساسية في الوقت الراهن للعرب** (فاليونان هم وحدهم يترجمون اليوم من ذلك الأضعاف المضاعفة مما يترجمه كل العرب) و قد وجدت في المشرق العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي نهضة حقيقية في ترجمة العلوم ثم توقفت في القرن العشرين.

فالضعف الذي تمتاز به العربية في منافسة غيرها ليس هو أزمة مؤقتة، كما قلنا، بل هي وضعية اجتماعية ورثناها من الماضي القريب ومن الركون الذي عشنا فيه منذ قرون. وأهم ما تتصف به هذه الوضعية

هو ضعف المستوى الثقـــافي والعلمي لكل الفئات المثقفة باستثناء عدد ضئيل جدا من النوابغ والضعف الشامل لكل تكوين مهما كان إلا ما شذ عن ذلك. والتدني المستمر لهذا المستوى منذ عشرات السنين على الرغم من حصول أكثر البلدان العربية على استقلالها بل وعلى الرغم من إبقاء التعليم للعلوم باللغة الإنكليزية أو الفرنسية. والضعف شامل لكل البلدان العربية إلى غاية الآن ولا نجرؤ على الحكم بذلك فيما يخص المستقبل القريب لأن ما نشاهده من الازدهار الاقتصادي لبعض الدول النامية قد يساعد أيما مساعدة على الارتقاء الثقافي بلا شك ثم إن هذا التدني هو أخطر في تعليم اللغة العربية (واللغات الأجنبية منذ عهد قريب!) وهذا يكوّن حلقة مفرغة لأن الضعف في اكتساب المهارة في اللغات يكون سببا في تدني التعليم لسائر المواد.

أما هذه الوضعية الاجتماعية التي لها أسباب تاريخية **فاللغة بريئة** منها لأن أصحابها هم الذين تأخروا علميا وتكنولوجيا وعسكريا عن غيرهم فتبعتهم اللغة التي ينطقون بها. وهذا ينفي ما زعموه من أن العربية غير قادرة على التعبير العلمي المعاصر. **إذ ليس من لغة في الدنيا** يكون لها كتابة **إلا وهي قادرة على التعبير العلمي** إذا ما ارتقى أصحابها أيا كانت ومهما كانت وضعيتها الاجتماعية فقوة اللغة ونفوذها لا تكمن في ثروتها من حيث المصطلحات العلمية والتقنية بل فيما تنقله من معلومات جديدة يتسابق الناس إلى الحصول عليها. فوجود المصطلحات فيها ناتج عن هذا لا العكس. وأكبر دليل على ذلك هو أننا ننقل –كمفاهيم– المصطلحات

التي يضعها الغربيون ولا نضع فيما يخص العلوم أي مصطلح و نعني بذلك أي مفهوم . ومن يضع من العرب مصطلحا يشيع فهو باللغة الأجنبية وهو صادر ممن اندمج منهم في المجتمع الأوروبي أو الأمريكي لأن تفوق الفرد العربي في العلم في زماننا **هو في الغالب** تفوق الفرد الذي يعيش في هذا المجتمع.

ولهذا نعود ونقول بأن الوضع الذي هو عليه اللغة العربية في زماننا ليس هو مجرد أزمة .

III- الثنائية اللغوية الوظيفية في نقل العلوم ضرورة مؤقّتة لا مفرّ منها الآن

إ ن غياب اللغة العربية تماما من التكوين والتعليم العلمي خاصة هو أخطر من الثنائية السلبية التي أشرنا إليها (ويمكن أن نتسامح مع الجزئية منها ما دامت لا تشوه الهوية العربية).

فالتدهور الذي أصابنا كعرب ليس في الثنائية في ذاتها بل في تقهقر مكانة العربية منذ أن نهضت أوروبا وانزوى العرب وأكثر من هذا منذ أن مُنعت العربية من أن تستعمل في أهم ميدان وهو العلم والتكنولوجيا فصارت لغة أجنبية في كليات الطب والعلوم ولغة ثانية تعلم كلغة فقط في المدارس الخاصة.

وهذا يحتاج إلى توضيح وبيان: إننا لا نعارض التعليم باللغة الأجنبية للعلوم الإستراتيجية إنما الذي نعارضه وننتقد من يفرضه أو يحبّذه هو

التعليم باللغة الأجنبية وحدها لجميع المواد وغياب اللغة العربية في عقر دارها في التعليم أو في غير التعليم أحيانا كثيرة .

فإخراج اللغة العربية من كليات الطب وكليات العلوم أو التكنولوجيا والمعاهد العلمية العليا لا يبرّره شئ أبدًا حتى تقدم اللغات الأجنبية في نقلها للعلوم. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نعطي للعربية فرصة لكي تُسهم في نقل العلوم مثل اللغات الأجنبية؟ فنحن لا نعارض أبدا وجود هذه اللغات النقالة للعلوم في كليات العلوم والطب وقد أصبحت بالفعل المنبع الوحيد الآن للعلوم بل الذي نعارضه هو إبعادنا للعربية بكيفية مطلقة من المكانة التي يجعلها لغة علوم وهو استعمالها في هذا الميدان الحاسم و لو بالنقل من أصحابها في البداية.

ثم إن إدخال الثنائية في التعليم العالي (في تعليم العلوم) والبحث العلمي هو ضرورة مُلحة في زماننا هذا إذ لا يمكن أن نستغني عن استعمال اللغات التي تنقل العلوم في الوقت الراهن كما لا يمكن ولا يُعقل أن نُعدم العربية إعداما بإبعادها ظلما وإجحافا عن المكان اللائق بها.

ولابد ههنا من ملاحظة مهمة جدا:

إن **استعمال اللغة الفعلي** بأي كيفية وأي ميدان كان هو الوسيلة الوحيدة:

أولا: لحصول الناطق بها على الملكة اللغوية الكافية في استخدامها من جهة.

ثانيا: لتكيّف اللغة وتطورها بالزمان الذي نعيش فيه واستجابتها لما يتطلبه العصر من جهة أخرى.

أما فيما يخص النقطة الأولى:

فالتعليم للغة الذي لا يرافقه أي استعمال لا في تعليم المواد الأخرى ولا في خارج المدرسة هو تعليم لا يفضي أبدا إلى المستوى من المهارة الكافية في اللغة. وهذا ما نشاهده في تعليم اللغات الأجنبية من النقص الفظيع للتلاميذ من حيث معرفتهم العملية للانكليزية والفرنسية. ولذلك يجب أن تخصص نصف سنة دراسية بعد الحصول على البكالوريا للتدريب اللغوي بطريقة قريبة من «الانغماس» الكامل من جهة ويُحوّل جزء كبير من حصة اللغة الأجنبية في الثانوي إلى مادة علمية ويأتي ذلك في مكان الدراسة للأدب أو الحضارة الأجنبية أو جزء كبير من ذلك.

أما ما يخص النقطة الثانية فقد بينا أن انزواء اللغة وإبعادها من الاستعمال في الميادين الإستراتيجية خاصة يسبّب توقف تكيفها وتطورها مع متطلبات العصر. وبالتالي تصير لغة غير مرغوب فيها حتى عند أصحابها وحتى في الحياة العادية أحيانا.

واللجوء إلى الثنائية في التحصيل على العلوم هو ضرورة يفرضها العصر إلى أجل مسمى وللضرورة أحكام.

IV– التدابير الكفيلة بجعل العربية مطلوبة من الجميع

إن المبدأ العام الذي ينبغي أن تخضع له كل الدول العربية وكل المجتمعات الناطقة بالعربية هو: **ألا تغيب العربية من أي مكان وأي ميدان إطلاقا** من جهة **وربط اللغة العربية من جهة أخرى بالعلم**

والتكنولوجيا فلا نهوض للغة إلا بهذا الربط. كما هو الحال في عصرنا هذا: فكل ما نأخذه من الغرب الآن يبقى التعرف عليه واستثماره باللغة الأجنبية عند عامة الناس في مختلف الفئات والميادين. هذا فيما يخص المسميّات الحديثة. أما الأفكار العلمية والتقنية بل والصناعية والتجارية فقد يفضل التعبير عنها والحديث عنها باللغة الأجنبية. وكل هذا مصدره غياب اللغة العربية من الأماكن الخاصة بكسب المعارف والأماكن الخاصة بالإعلام وبالإشهار. فقد شاع الآن التعليق الإشهاري باللغة الأجنبية في كل البلدان العربية.

ونقترح فيما يلي ما نعتقد أنه سيساعد على النهوض باللغة العربية وإزالة الثنائية السلبية بالتالي:

1) ضرورة اللجوء إلى الثنائية اللغوية في تعليم العلوم والتكنولوجيا في المستوى العالي وتعميم ذلك في كل ما يتجاوز التعليم الثانوي في كل البلدان العربية ولابد من إجراء تشاور واسع النطاق في مستوى إطارات التعليم العالي (وأشهر الأساتذة في مهارة التعليم) لاختيار المواد التي ستدرس بالعربية أو اللغة الأجنبية ويكون ذلك على أساس وجود العدد الكافي من الأساتذة الأكفاء والمراجع بالعربية ويمكن أن يلجأ إلى أكبر الأساتذة الأجانب و المتغربين من العرب من أصحاب النظريات العلمية لإلقاء محاضرات لمدة كافية في كل سنة باللغة الأجنبية لتطوير المعارف العلمية باستمرار. وباللجوء إلى التبادل الكثيف مع الجامعات الأجنبية.

1 - يُنشأ في كل جامعة وكل مركز بحوث **مركز للترجمة العلمية** وذلك في إطار مشروع الذخيرة العربية (وقد تقرر ذلك في الجزائر) لترجمة البحوث الهامة التي تصدر في المجلات العلمية العالمية وكذلك الكتب الجامعية القيمة. ويقوم بإقرار الترجمة لهذه المراجع مجلس علمي في كل دولة بعد اقتراح كل مؤسسة علمية في كل بلد و يمكن أن يشرف على ذلك مجلس علمي قومي.

ويجتمع وزراء التعليم العالي والبحث العلمي العرب مرة في كل سنة لمتابعة هذه الأعمال واتخاذ التدابير اللازمة لتطويرها وتحسينها.

2) ضرورة النهوض باللغة العربية بدعم تعليمها فيما قبل التعليم العالي وكذلك الانكليزية والفرنسية. ونقترح لذلك:

1 – القيام ببحث علمي تطبيقي لمضاعفة مردود طرائق التعليم للغات (في علم تعليم اللغات المقارن) وتعميم الاستفادة بالنتائج (انظر النقطة 6 فيمايلي).

2 – تكثيف دروس العربية والانكليزية أو الفرنسية والتشدد المعقول في طلب المستوى المناسب.

3 – تخصيص النصف من برنامج تعليم الانكليزية أو الفرنسية للغة العلمية بالتنسيق مع برنامج العلوم الذي يعلم بالعربية.

ويُرجى ههنا أيضا أن يجتمع وزراء التربية العرب مرة في السنة للتخطيط واتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذ هذا المقترح وبالتنسيق مع التعليم العالي.

3) **مصادقة كل دولة عربية على مشروع الذخيرة العربية** ونظامها الأساسي وقد صار مؤسسة تابعة لجامعة الدول العربية أُنشئت منذ زمان قريب. والمشروع يرمي إلى إنشاء انترنت عربي (مثل جوجل الأمريكي إلا أنه علمي وثقافي وتراثي). وذلك لدعم التعليم العادي والبحث العلمي وبالتالي **لرفع المستوى العلمي والثقافي للمواطن العربي باللغة العربية** أيا كان سنه وأيا كان مستواه. والمستقبل ،كما هو معروف، هو لهذا النوع من الاتصال الجماهيري **المتفاعل** العظيم المفعول.

4) **ضرورة اللجوء أيضا إلى الثنائية اللغوية في المدارس الخاصة** والامتناع من أن تكون العربية فيها لغة ثانوية تعلم كلغة فقط وتختار بين اللغات الأخرى بل يجب أن تكون لغة تعليم على الأقل لمادتين علميتين. ويفرض ذلك على جميع المدارس حتى التابعة للدول الغربية ما دام فيها تلاميذ عرب بكثرة. ولا يتساهل في ذلك مهما كان لأن شبابنا إذا كان تكوينه كله بلغة أجنبية صار بالضرورة يتكلم ويكتب بلغة تكوينه ليل نهار ويتهاون بلغته ويصير بذلك من غير أهلها.

فالمبدأ ههنا هو أن يمنع منعا باتا كل تكوين ابتدائي وثانوي يكون كله بلغة أجنبية إذ العبرة بالتعليم المبكّر في تكوين الهوية الوطنية.

5) **تعميم وجود المعاهد الخاصة بتكوين المعلمين** وذلك بإنشاء لمعهد واحد في كل مقاطعة عربية تتجاوز عددا من السكان. وقد يجهل من ليس من الميدان التربوي أهمية الدور العظيم الذي تلعبه المؤسسة الخاصة بهذا التكوين. وأكبر كارثة يصاب بها الوطن هو الاكتفاء بالبكالوريا

كشرط لممارسة مهنة المعلم. ونلاحظ أن ما يسمى بالمعهد التربوي في بعض البلدان ليس هو الذي نقصده لأن المقصود ههنا ليس التخصص في علوم التربية بل الاكتساب النظري والتطبيقي لمهارة التعليم لمختلف المواد التي تعلم في المدارس الابتدائية.

6) **ضرورة البحث العلمي التطبيقي** في اللغة العربية وتعليمها بفتح معاهد خاصة لذلك ومنح الماجستير في هذا الميدان. وقد تقدمت البحوث في تعليم الانكليزية والفرنسية إلى حدّ بعيد جدا بربطه بتطور اللسانيات التطبيقية. فلابد من مراعاة ذلك والنظر المعمق فيما تحصل العلماء فيه. ولابد من تعميم المقترح الرابع والخامس على جميع الدول وإثارة هذين الموضوعين في الاجتماع السنوي للوزراء المعنيين بالأمر الذي اقترحناه سابقا.

7) **فرض وجود اللغة العربية بكل ما هو إشهار** مع قبول الثنائية إذا كان المنتوج والمقصود إشهاره من إنتاج الغربيين. ولا يتسامح في ذلك فلا يكون أي إشهار باللغة الأجنبية وحدها ولا بالعامية.

8) **إحياء التخاطب العفوي بالفصحى المنطوقة** فهذه العربية هي التي كان ينطق بها يوميا العرب قبل أن تتحوّل لغة التخاطب إلى عاميات محلية. فالعاميات لم تقمْ مقام اللغة العربية التي تعلم في المدارس كما هو معروف بل قامت مقام العربية المنطوقة الفصحى التي أصابها التغيير على ممر الزمان ولأسباب تاريخية اجتماعية.

فهذه الفصحى بما أنها منطوقة (لغة تخاطب) فإنها تتصف بالخفة التي يتطلبها الخطاب العفوي و هي عبارة عن اختصار الكلام واختزال الحروف والحركات وقصرها وكثرة الإدغام بين كلمة وأخرى وهو ظاهرة عامة الوجود لا تختص بها لغة دون لغة. فالخفة في العامية اعتبرت لحنا وليس الأمر كذلك أبدا. فاللحن هو الذي يجعل اللغة تبتعد عن الفصحى في النحو و معاني المفردات أما الخفة فهي ظاهرة طبيعية وعربية التخاطب الفصيحة القديمة قد وصفها النحاة القدماء مثل سيبويه وعلماء القراءات أيضا وعدم وجود تعليم لقواعد الخفة الخاصة باللغة العربية جعلت الفصحى **المرتلة** التي تعلّم في المدارس –هي وحدها– غير صالحة للخطاب العفوي و قد صارت هذه اللغة المرتلة هي لغة التخاطب العادي في الأفلام التاريخية وهي تبدو لأكثر الناس غير طبيعية لأنها لا تستجيب لنواميس الأداء العفوي اليومي للغة.

ومثال ذلك النطق بالهمزة فقد وصف العلماء وأهل الأداء أنواعا من النطق بها ومنها ما استخفه العرب كالحذف للهمزة الساكنة في بير وذيب وكتسهيل المتحركة في سال أو إسقاطها في مَرَة عوض مرأة. فهذا كله كان موجودًا في التخاطب الفصيح وبقي في العاميات فاعتبر لذلك لحنا مع أنه ميزة للمستوى العفوي المسترسل في التخاطب العادي. وهو موجود **في جميع اللغات** ولا يعتبر لحنا ويُعلم في المدارس بل هو من كلامهم المستخف كما كان ذلك موجودا في استعمال العربية يوميا في الحاجات العادية. وقد وصفه النحويون الأولون كما قلنا مثل سيبويه

ويسمى هذا الأداء عند القراء بالدرج أو الإدراج (ولذلك سميت العامية باللغة الدارجة وهو وصفها المستخف لا الملحون منها).

ونقترح أن تدخل في المقرر الخاص بالعربية تعليم الأداء المسترسل كما نطق به العرب الفصحاء ولحاجتنا إلى لغة عربية فصيحة تستجيب لما يقتضيه التخاطب اليومي غير المكلف. وهذا لن يقضي على العامية بل سيجعل المثقفين يفضلون اللجوء إلى هذا الأداء الفصيح الذي تعلموه في المدرسة والذي يستجيب لمتطلبات التخاطب العفوي. ونقترح مع هذا اهتمام كل من له علاقة بالإعلام المسموع والمرئي باللجوء إلى هذا المستوى من الأداء الفصيح(1) المسترسل في كل تخاطب عفوي(2).

الخاتمـــة:

إن الثنائية اللغوية الحقيقية هي في استعمال لغتين مختلفتين في الحياة العامة في ميدان معين كالتعليم أو البحث العلمي أو المعاملات التجارية أو الإدارة. ولا ثنائية حقيقية في تعليم العلوم في الجامعات العربية الآن على الرغم من معرفة الطالب(السيئة غالبا) للغتين ولا في تعليم التاريخ في المدارس الخاصة ببعض البلدان العربية لأن هذا تعليم وحيد اللغة لا تستعمل فيه إلا اللغة الأجنبية. فالعبرة في ذلك هو في استعمال لغتين في ميدان واحد بالفعل. أما تحرير المراسلات والتعليمات وغيرها مما تحرره الإدارة فإن حصل ذلك باللغتين —لنفس الوثيقة أولا– فهي ثنائية لغوية.

---

(1) وقد يقترب الأداء في الحديث إذا كان موضوعه ثقافيا من هذا لأنه يبقى فيه ما هو غير فصيح.

(2) يمكن أن يُرجع إلى ما كتبناه في هذا الموضوع : العربية بين المشافهة والتحرير في كتاب: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج1.

وللثنائية اللغوية منافع وأضرار. فمثل ما ذكرناه من الثنائية في الحديث العادي والتخاطب اليومي واستعمال اللغتين في كتابة الوثائق فلا شك أنه غير مفيد إذا لم تفرضه الظروف وإذا صارت عادة مأنوسة لأن مثل هذه الثنائية هي مجرّد فضلة لا فائدة فيها إذ لا تقوم بوظيفة معينة.

أما ما لا يمكن أن يردّ من الثنائية فهي التي تكون وظيفية يهدف منها شئ معين. وهي كل ثنائية تقوم مقام الاكتفاء بلغة أجنبية بإبعاد اللغة العربية وذلك كالتعليم للعلوم والتكنولوجيا في الجامعات وكالتعليم الخاص. فبما أن استعمال اللغة الأجنبية في تعليم العلوم قد يُضطر إليه في عصرنا هذا إذ مازلنا وسنزال إلى أجل غير مسمى في الكثير من الميادين العلمية عالة على غيرنا. و لم تتوفر لنا بعد الوسائل لترجمة الكمية الهائلة من البحوث مع السرعة العجيبة التي يتصف بها التقدم في العلوم والتقنيات. فلابد من أن يكون الطالب العربي من الكلية العلمية وغيرها من الكليات العلمية قادرًا القدرة الكاملة على أن يتابع الدروس النظرية والتطبيقية باللغة الأجنبية إلا أن في إبعاد العربية تماما عن هذا التعليم أضرارًا تفوق المنافع. فالثنائية اللغوية ههنا تكاد تكون هي الحل الوحيد لتفادي التخلّف وفقدان الهوية العربية في نفس الوقت. وهذا ليس أمرًا بسيطًا أبدا فقد يحتاج التنفيذ لهذا الذي نتصوره ونرغب فيه إلى **دراسة دقيقة وتشاور واسع** يُفضيان إلى القيام بتجربة جزئية في بعض البلدان.

وقد اقترحنا بعض ما يمكن أن يساعد على النهوض باللغة العربية ومن ذلك هذه الثنائية الوظيفية المحدودة وبعض التدابير الفرعية المفيدة

كإنشاء مركز للترجمة العلمية في كل جامعة تكون لها إمكانيات كافية في ذلك والمصادقة على مشروع الذخيرة العربية لتنفيذ ذلك ودعم التكوين والتعليم وبالتالي رفع المستوى الثقافي بالعربية لكل مواطن. كما اقترحنا العناية بتكوين المعلم وذلك بإنشاء في كل إقليم في كل بلد لمعهد لتكوين المعلمين وغير ذلك.

والله ولي التوفيق